فقد كان الناس يبيعون نتاج قلوبهم وأفكارهم وعضلاتهم ويقبضون أثمانها كميات متفاوتة من مثل تلك الأوراق. فكان أوسعهم حيلة وأعظمهم ذكاء ودهاء أكثرهم نقداً. وهؤلاء كانوا يُدعَون أغنياء. وكان أقلّ الناس دهاء وذكاء وحيلة أقلّهم نقداً. وأولئك كانوا يُدعَون فقراء. ولأن أهل الحيلة والذكاء والدهاء كانوا دائماً قلّة فقد كان الجانب الأكبر من الناس في بؤس مقيم وضنك شديد، وكانت القلّة تتحكّم أبداً في حياة الكثرة.

«لعلّكم لا تصدّقون إذا قلت لكم إنّ هذه الأوراق كانت عند أسلافنا بمعزّة الروح، بل أعزّ من الروح. فبها كانوا يبتاعون كلّ مقوّمات الحياة. وبدونها لم تكن لهم حياة. حتى القوت الضروري، وحتى المعرفة، وحتى الرحمة والعافية كانت بضاعة يعزّ الحصول عليها إلّا بمثل هذه الأوراق. ولذلك كان الجهل والمرض والقذارة نصيب الفقراء في الأرض وهم الأغلبيّة الساحقة في الأرض، والذين ما جادت الأرض بخيراتها إلّا بقوّة سواعدهم وعرق جباههم. وبشرية تحبس أقليتُها الرزقَ والمعرفة والعافية عن أكثريتها وتمتهن الإنسان إلى حدّ أن يبيع كرامته بكسرة خبز وقميص وحذاء كيف ترجو لها التقدّم والسلام والاستقرار؟ وأيّ عجب في أنّها راحت تنهش